الأصول ما بعد الحداثة للنّقد الثّقافي

(مدرسة فرانكفورت، ميشال فوكو، دريدا)

****01/ مدرسة فراكفورت:***

هي مدرسة ألمانيّة، اشتغلت على تفكيك العقل الغربيّ وفق مقاربة جديدة، وذلك "بالتّركيز على تشريح الأنظمة الاجتماعيّة، وتحديد العناصر المكوّنة للتّوجه الاجتماعيّ، وتحديد العلاقة بين الاجتماعيّ والاقتصاديّ والأيديولوجيّ"[1] –واستبعدت المدرسة اهتمامها بالتّاريخ والاقتصاد إلى حدّ ما–.

****02/ مفهوم الدّراسات الثّقافية عندها:***

كلّ ما يعبّر به النّاس عن حياتهم يستحقّ الاهتمام، حيث تغزو الدّراسات الثّقافية جميع مظاهر الحياة: الأوبيرا، الأزياء، أحاديث المقاهي، عمليّات التّسويق، والأفلام وغيرها لتقوم بفحصها وتحليلها، تأسّس مشروعها الفلسفيّ سنة 1923 في مدينة فراكفورت على أنقاض معهد البحوث الاجتماعيّة، وهي حركة تعتمد في المقام الأوّل على أعمال ماركس[2].

ترجع نظرتها الفلسفيّة إلى المرجعيات (الكانطيّة، الهيجيلية، الماركسية، الفرويدية)، أهمّ ما يميّزها أنّها اتّخذت النّقد منهجا إزّاء الحضارة الغربيّة قصد إعادة النّظر في أسسها ونتائجها في ضوء التّحولات الكبرى الّتي أفرزها الحداثة، كما أنّها لعبت دورها في رصد مختلف الأعراض الباثولوجيّة(المرضيّة) الّتي عرفتها المجتمعات الغربيّة المعاصرة كالتشّيؤ والاغتراب وضياع مكانة الفرد وأزمة المعنى وغيرها[3].

****03/ معهد فراكفورت للبحث الاجتماعي:***

تأسّست في 1923 على أيدي نخبة من الفلاسفة وعلماء الاجتماع والاقتصاد والنّفس والنّقد الأدبيّ والجماليّ المنحدرين من أصول يهوديّة، وحدّدوا اهتماماته وهدفه منذ البداية، بحيث يكون معهدا حرّا غير مقيّد بالنّظم الجامعيّة والأكاديميّة، ويتفرّع لبحث مشكلات الاشتراكيّة، والماركسيّة والعنصريّة وحركة

---

[1] محمّد سالم سعد الله: سجن التّفكيك الأسس الفلسفيّة للنّقد ما بعد البنيويّة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط01، 2013، ص186.

[2] كنزاي محمّد فوزي: براديغم مدرسة فراكفورت على المحّك، منظور اتّصالي، مجلّة البحوث والدّراسات الإنسانيّة، ع09، 2014، ص104.

[3] بومنير كمال: النظريّة النّقدية لمدرسة فراكفورت، من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيت، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط01، 2010، ص09.

العمّال، مع الاعتماد بصورة عامّة على المنهج الماركسيّ في التّحليل النّقدي الاجتماعيّ، وعندما أغلقته النّازية تمّ ضمّه إلى جامعة كولومبيا في مدينة نيويورك بالولايات المتّحدة الأمريكيّة[1].

04/ العلاقة بين الماركسيّة والفرويدية ومدرسة فراكفورت:

تتمثّل في "إيريك فروم" (23 مارس 1900–18 مارس 1980)، هو عالم نفس وفيلسوف إنسانيّ ألمانيّ أمريكيّ، ولد في مدينة فرانكفورت، وهو الابن الوحيد لوالدين أرثودوكسيّين، كرّس كتاباته لإنشاء علاقة بين التّحليل النّفسي والماركسيّة، وذلك عن طريق توسيع أفكار "فرويد" الخاصّة بالفرد، لتشمل علاقته بالأسرة، والوضع التّاريخي لطبقته الاجتماعيّة، ممّا جعله يهدف إلى إقامة علم نفس اجتماعيّ ماركسيّ.

ركّز أعضاء مدرسة فرانكفورت للنّقد من أمثال "هوركهايمر" و"أدرنو" و"ماركيور" اهتمامهم على مشاكل البنية الفوقيّة، فقد وجدوا أنّ وسائل الإعلام قد أفسدت على الجماهير عقولهم باستدراجهم إلى ثقافة الاستهلاك، وإلى المتع السّطحية المبتذلة، الّتي تقدّمها إلى الثّقافة الشّعبية، وقامت وسائل الإعلام هذه بغسل عقولهم من كلّ شيء يدعو إلى الاهتمام بالهويّة أو إلى الثّورة ضدّ الطّبقة الحاكمة، وسياستها القمعيّة أو حتّى ضرورة التّغيير الاقتصادي، وهذا الثّبات والإبقاء على النّظام الاقتصاديّ الرّاهن، هو ما يخدم الطّبقات الحاكمة في المجتمع الرّأسمالي، ولذلك أكّد "أدرنو" : "أنّ الجماهير لم تفقد القدرة على أن يروا الواقع كما هو فحسب، بل إنّهم قد فقدوا القدرة على الإحساس بالخبرة الحياتيّة، حيث تعرّضوا إلى قدر كبير من التّنميط، ولمناخ تشاهد فيه الجريمة بحسّ بليد كتحصيل حاصل[2].

05/ التّفكيكة والنّقد الثّقافي:

من أشهر ممثّليها جاك دريدا(J.Derrida) وجاك لاكان(J.Lacan)، وجيل دولوز(G.Deleuze)، وميشال فوكو(M.Foucault)، وفيليكس غاطري(F.Guattari). وليست التّفككية (Deconstruction)إلاّ مظهرا لهذه الحركة الفلسفيّة، بل هي مرادف لها في كثير من الكتابات النّقديذة والفلسفيّة[3].

أ/ميشال فوكو:

---

[1] مكّاوي عبد الغفّار: النظريّة النّقدية لمدرسة فراكفورت، مؤسّسة هنداوي، 2018، ص16-18.
[2] أرثر إيزابرجر: النّقد الثّقافي، ص83، 84.
[3] يوسف وغليسي: مناهج النّقد الأدبيّ، جسور للنّشر والتوزيع، الجزائر، ط01، 2007، ص168.

ولد ميشال فوكو في بواتيه (Boitier) في فرنسا عام 1926، وتعلّم في مدرسة المعلّمين العليا وحصل على شهادة الدّكتوراه عام 1948م وهنا وقع تحت تأثير "لوي ألتوسير" الّذي قدّمه للبنائيّة الماركسيّة و"جان هيبوليت"(Jean hyppolie) وهو فيلسوف تميّزت أعماله باتّجاهاتها الهيجيلية الفلسفيّة، و"جورج ديمزيل" (G.Damezil) الّذي اهتمّ بتاريخ الأسطورة والفنّ والدّين، وبعد أن التحق بالحزب الشّيوعي واحتلّ دورا مهمّا في المناقشات والجدل الّذي كان يدور بين المثقّفين الفرنسيّين حول الماركسيّة والدّولة السّوفياتية، تحوّل "فوكو" من الفلسفة النّظرية إلى الاهتمام بالعلوم الاجتماعيّة، وفي عام 1950م حصل على درجة في علم النّفس ومكث سنتين في دراسة العلاج النّفسي في جامعة باريس ثمّ مكث في مستشفى للأمراض العقلية يمارس الطبّ النّفسي لمدّة ثلاث سنوات ومنها ذهب إلى جامعة أبسالا (Appsala) في السّويد، حيث أصبح محاضرا لمدّة أربع سنوات وتابع هذه الوظيفة لمدّة عامين كمدير للمعهد الفرنسيّ في "هامبورج" لألمانيا، وبعدها أصبح مديرا لمعهد فلسفي في كليّة الآداب في كليرمون (claremont) بفرنسا[1].

ب/ مساهمته في الثّقافة الغربيّة:

كان لتدريب "فوكو" في الفلسفة وفي تّاريخ الأفكار وخبرته في مستشفيات الأمراض العقليّة عاملا مساعدا في تشكيل موضوع كتابه الأوّل "الجنون والحضارة" وتاريخ الجنون في عصر العقل/تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكيّ، اختلف الدّارسون في ترجمة عنوان الكتاب، نشر عام 1961 وقد حصل الكتاب على ميداليّة مجلس البحوث العلميّة وأصبح من أكثر الكتب مبيعا في فرنسا وكان كتابه الثّاني: مولد العيّادة: أركيولوجيا التصوّر الطبيّ ظهر في عام 1963 واهتمّ الكتاب بدور اللّغة والمصطلحات في تشكيل التّصورات الذهنيّة والطّرائق الّتي استطاعت بها التّرتيبات المتعلّقة بالمكان والأدوات والعلاقات الاجتماعيّة أن تؤثّر في الأفكار.

من هنا بدأت اهتمامات "فوكو" تتحولّ بشكل محدّد إلى موضوع أكبر وهو أصل التّطور في المجالات العلميّة: السّلوكية والاجتماعية والثّقافية. وفي عام 1966م نشر كتاب نظام الأشياء: أركيولوجيا العوم الإنسانيّة، تناول فيه المقولات الّتي جعلت التّفكير سهلا في العلوم الإنسانيّة والمقولات الخاصّة الأساسيّة في اللّغة والكلام والتّاريخ والقيّم، والمنفعة، والتّبادل، والثّروة والعمل وموضوعات أخرى كثيرة، ورغم ما يثيره مجال الكتاب من إحباط، ورغم غموض الأسلوب المنتشر في التّناول ومنطقه ومنهجه غير

[1] أحمد أبو زيد: كتاب التّحليل الثّقافي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، دط، 2009، ص30.

المألوفين، فقد اعتبر الدّارسون الأوروبيّون ذلك الكتاب إسهاما ضخما في الفلسفة، وأنّه دون كتاباته الأخرى أكثرها اتّصالا بالعلماء الاجتماعيّين نظرا لأنّه يحتوي على تحليلات عميقة حول الافتراضات الكافيّة وراء العمل الاجتماعيّ العلميّ.

و لمّا أحسّ "فوكو" بالحاجة إلى توضيح طرائقه الخاصّة بالبحث وتنسيقها سواء لنفسه أو لأتباعه الّذين كانوا في تزايد متسارع نشر كتابه التّالي أركيولوجيا المعرفة عام1969[1]. وضمّ فيه أبرز الخطوط العريضة والمثيرة حول توجيه التّحليل الثّقافي، ومثّل الكتاب ذروة العمل الّذي ركّز عليه "فوكو" في ذلك العقد، ومثّل نقطة التّحول الّتي ستظهر بوضوح في كتاباته اللاّحقة.

ج/مفهوم القوّة:

في كتابه بيير ريفر/التّرويض والعقاب، ميلاد السّجن 1975 وكتاب تاريخ النّشاط الجنسيّ 1976، ركّز "فوكو" على مدى تشابه المعرفة بوسائل القوّة المختلفة والطّرائق الّتي يمكن بها تحديد القوّة واستخدامها والتّفكير في تطبيقها في مجال النّظم الاجتماعيّة وهي كلّها مواضيع حديثة تحدّث عنها في مقالات ومقابلات متعدّدة، ثمّ جمعها في كتاب "القوّة/المعرفة" 1980[2].

د/ جاك دريدا(J.Derida):

التّفكيكيّة (أو التّشريحيّة أو التّقويضيّة...) هي المقابل العربيّ لكلمة (Deconstruction) ذات الدّلالة الفلسفيّة النّقدية المعتاصة، فالتّفكيك يقدّمه "دريدا" على أنّه "ليس تحليلا analyse ولا نقدا critique"[3]. و"ليس التّفكيك منهجا ولا يمكن تحويله إلى منهج، خصوصا إذا ما أكّدنا على الدّلالة الإجرائيّة أو التقنيّة"[4].

تسعى التّفكيكيّة إلى تحرير النصّ الحيّ المفتوح من قيد القراءة الأحاديّة المغلقة، القاتلة الّتي فرضتها البنيوية عدّة سنوات، فقد كان "دريدا" على حدّ تعبير "أمبرتو إيكو" يبتغي "تأسيس ممارسة (فلسفيّة أكثر منها نقديّة) تتعدّى تلك النّصوص الّتي تبدو وكأنّها مرتبطة بمدلول محدّد ونهائيّ وصريح...إنّ ما يسعى

---

[1] أحمد أبو زيد: كتاب التّحليل الثّقافي، ص31.
[2] المصدر نفسه، ص32.
[3] جاك دريدا: الكتابة والاختلاف، تر: كاظم جهاد، دار توبقال، المغرب، دط، 1988، ص60.
[4] المصدر نفسه، ص61.

إلى البرهنة عليه هو السّلطة الّتي تمتلكها اللّغة المتجليّة في قدرتها على أن تقول أكثر ممّا تدّل عليه ألفاظها مباشرة"[1].

يوصف "دريدا" بأنّه مفكّر صعب؛ ويصف نفسه القلقة بقوله: "أنا يهوديّ جزائريّ، يهوديّ لا، يهوديّ بالطّبع، ولكن هذا كاف لتفسير العسر الّذي أتحسّسه داخل الثّقافة الفرنسيّة، لست منسجما إذا جاز التّعبير، أنا إفريقيّ شماليّ بقدر ما أنا فرنسيّ..."[2].

لذلك لم يكن غريبا أن يلجأ في طفولته إلى الكتابة الشّعرية بحثا عن لغة خاصّة تترجم نفسيّته المفكّكة وقلقه الفكريّ المبكّر...ولذلك لقي اضطهادا ثقافيا ولم تجد تفكيكيّته ضالتها في المعقل الفرنسيّ، بسبب كتاباته الغامضة لجمهور فرنسيّ يعدّ الوضوح (La clarte) مزيّة وطنيّة أو رمزا يدّل على الذّهنية الفرنسيّة[3].

ومنذ ندوة 1966 بأمريكا صار "دريدا" شخصيّة أكاديميّة محبّبة لدى الأمريكان وتحوّل إلى أستاذ بجامعة "يال"، ويذكر "دريدا" في إحدى المحاورات أنّه حين وضع مصطلح (Deconstruction)، كان يفكّر خصوصا في استخدام "هيدغر" لكلمة(التّدمير Destruction) ، بمعنى تحليل بنية ما عن طريق نشرها وبسطها على طاولة التّشريح، مثلما كان يفكّر في كلمة (Abbau) الألمانيّة أي (Demontage) الفرنسيّة الّتي استعملها "فرويد" للدّلالة على نوع من التّركيب بالمقلوب. ويذكر أيضا أنّ التّفكيك –بحكم تزامنه مع التألّق البنيويّ– كان موجّها أيضا إلى الهيمنة البنيويّة[4].

الخاتمة:

ومن ثمّ يمكن القول: إنّ النّقد الثّقافي استفاد من التّفكيكيّة كاستراتيجيّة لتحليل البنيات الّتي تختفي خلفها أنساق مضمرة تحتاج إلى القراءة والتّأويل من أجل تنوير الرّأي العام لما يحدث حوله من صراعات تجسّدت في صور وإيديولوجيات وسياسة وثقافة و...، وقد تهدّد كيانه وهويّته الذّاتية الخاصّة.

---

[1] أمبرتو إيكو: التّأويل بين السّيميائيات والتّفكيكيّة، المركز الثّقافي العربيّ، تر: سعيد بن كراد، لبنان، المغرب، ط02، 2004، ص124.
[2] جاك دريدا: الكتابة والاختلاف، ص56.
[3] يوسف وغليسي: مناهج النّقد الأدبيّ، ص177.
[4] المصدر نفسه، ص180.